جامعة عين شمس
كلية الآداب

المدينة
في الشعر العربي المعاصر

رسالة قدمها

الطالب / مختار علي أبو غالي

للحصول على
درجة الدكتوراه

إشراف

الأستاذ الدكتور / صلاح فضل

كافح الإنسان من أجل الحياة ، واضطره دأبه على الكفاح أن يعمل للبقاء فى الوجود، وفى مرحلة الوحشية اقتضت الضرورة الاقتصادية فى مجتمعات دائمةِ التعرضِ للخطر أن تعيش الجماعات البدائية فى اكتفاء ذاتى ، ولم يكن ثمة ضرورة للملكية الخاصة ، ولا لأدوات الإنتاج ، وفى مرحلة الهمجية قلّتْ درجة المخاطر ، واتسعت أمام الإنسان الفرص لتعلم الزراعة ، وبناء المساكن ، فأقام منشآته الأولى منذ بزوغ الثورة الزراعية ، فبدأ يجفف الثمار ، ويصنّع المحاصيل ، واكتسب إذ ذاك أدوات وأشياء غير الأسلحة البدائية ، أدوات جديدة من الحجر وبعض المعادن ، ثم أخذ يفكر فى غده ، ويحتاط لمستقبله ، فأخذ يفكر فى بناء الصوامع والمخازن ليكدس فيها مافضل عن حاجياته ، واخترع أسلحة تساعده على الاستقرار ، واستصلح الأرض ملكيةً خاصة ، تحولت إلى الأجيال عن طريق الميراث فى مجتمع الرعى والزراعة ، وظهرت الصناعات اليدوية لإشباع حاجات العشيرة ، وفى المجتمعات الزراعية كانت الإقامة المستقرة ، وفى مرحلة المدنية ساعدت العوامل الاقتصادية على نشأة عدد من المدن المحصنة ، قامت أساسا على نوع من الصناعة أدى إلى ظهور المدينة الضخمة ، وكانت المدينة تحقيقا مشخصا ، تتوافر فيه الطمأنينة والاتصال المستمر ، وهذه كانت لغة الإنسان فى حروبه ضد الطبيعة وأخطارها ، هذه الأخطار التى كانت تكتنف الإنسان من كل صوب وتهدده أيا كانت الطبيعة : غناء أم جرداء .(١)

وشيئا فشيئا أصبحت المدينة مركز ثقل إنسانى ، واستقطبت جهد الإنسان ، واستدرجته من البرارى والفضاء المفتوح ، وبدأت بالتالى مفاتن المدن وشرورها الآسرة تأخذ شكل الغواية ، ومع الزمن صعب مقاومة هذه الغواية ، على الرغم من أن المدينة كانت إلى حد كبير مفتوحة على الريف ، ولم تكن معزولة عنه تماما ، انبثقت فى العراء ، وانفتحت على العراء كذلك ، ولم تملك من الخصائص مايجعلها تكتفى بنفسها ، وبالتأمل فى تاريخ المدن لانجد موقفا عدائيا من المدينة ، ولانجد خصومة بين سكانها وأولئك الذين نزحوا إليها من الريف ، وكانت هذه سمة لمدنيات عديدة ، وفى العصور الوسطى كان للمدينة المسيحية جلالها الخاص ، حيث تمثل " النظام ، والجمال ، والأمن الإلهى " .(٢)

وقد أخذت المدينة أبعادا من الاتساعات والعادات والتقاليد ، غير تلك التى ألفها النازحون اليها ، مما اضطر هؤلاء الى التخلى عن إلفهم ، والتكيف ـ من استطاع منهم ـ

---

(١) انظر ،د. حسين الحاج حسن : علم الاجتماع الأدبى ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، وأيضا ، انظر : كينث فرامبتون : العمل والأثر والهندسة المعمارية (معنى الحرية ، ص ٢٥٠) .

(٢) أندريه نوشى : المدينة فى شعر زماننا (الإنسان والمدينة فى العالم المعاصر ، ص ٢١٣) وانظر د. على جعفر العلاق : المدينة فى الشعر ، الأقلام ، البغدادية ، العدد الخامس ، السنة الحادية والعشرون ، مايس ١٩٨٦ ص ٤٥ .

بنظم الحياة الجديدة ، رغبة فى التمتع بمنجزات المدينة من سهولة ويسر فى أسلوب المعيشة والحياة ، ولكن مدينة القرن العشرين تطورت بشكل حاد مما نجم عنه صعوبة فى التكيف ، لاسيما مع الشعراء ، وأخذت المعوبة شكلا مأساويا فى كثير من الحالات ، وكانت الانتصارات العلمية فى هذا القرن أملا يلون المأساة فيما يشبه الحلم بعالم أفضل ، يتكىء على إلحاح العلوم فى محو وإزالة المأساة عن المستقبل ، ويتكىء فى نفس الوقت على سيطرة الفلسفات المثالية والمدن الفاضلة على الفكر والوجدان ، ولكن النصر العلمى خيب الآمال المعقودة عليه ، لأنه كان مصحوبا بأبشع النظم الاستغلالية ، فاغتال الحريةَ الإنسانية ، وهى أغلى وأعز مايمتلك الإنسان من قيم ، ولم يردّ العطشَ الميتافيزيقى فى التطلع إلى كشف الألغاز والأسرار وأدغال المجهول ، ناهيك عما تمخضت عنه هذه الانتصارات العلمية من حربين متتاليتين ، أحالتا الأرض إلى خراب ، وراح شاعر القرن العشرين يغوص فى ذاته ، بحثا عن أبعاد روحية تخصب رؤياه فى بناء مدن فاضلة ، فى القديم والجديد ، فى الحلم والأسطورة ، علّهُ يجد البراءة والصفاء والفطرة والحرية ، تلك التى ضاعت فى زحمة الانتصارات العلمية الآلية ، والتطور التقنى فى أوربا وأمريكا ، ومن هنا اكتسبت المدينة - بما تمثله - طابعا عدائيا ، أدى بالتالى إلى اتخاذ موقف من المدينة ورموزها ، ويعتبر الشاعر ت.س إليوت ذروة الموقف العدائى من المدينة المعاصرة ، فى قصيدته " الأرض الخراب " ، " فالحضارة تنهار ، أوتسير إلى السقوط - كما يقول توينبى وكولن ولسون ، وتتحول فيهما إلى حطام "(١).

وفى الحضارة العربية لعبت المدينة دورا غير عادى ، ومدننا الكبرى تاريخ محفوظ منذ القدم ، ولكنه قد أتى عليها دهر لم تكن شيئا مذكورا ، يوم ودع العالمُ العربى عصره الذهبى ، ودخل فترة من البيات الحضارى ، فذبلت مدنه ، وانعكس الاتجاه - فيما بعد - بالاحتكاك الحضارى مع الغرب ، وبدأ يقترض من أوربا المدن ضمن مايقترض من مركبات الحضارة الحديثة ، ولم تكن استعارة المدن خلقا جديدا من لاشىء ، وإنما بعثا تجرثم فى بدايات القرن التاسع عشر ، واشتد عوده فى منتصف القرن ، واكتمل خلقه فى بداية القرن الحالى ، وبعودة الازدهار والنمو لم تعد المدينة العربية عالة على الزراعة الريفية ، بل تحولت إلى منتج حضارى ومادى فعال ، لاسيما فى التصنيع ، والتوسعُ فى حياة المدن ارتفاعٌ بوجه عام فى الحضارة العربية ، وبالمقارنة إلى أوربا فلا تقل ضخامة ثورتنا الديموغرافية عنها نسبة ، ولكن بينما عرفت أوربا ثورة مدنية كاملة قد تكون أخطر من ثورتها السكانية العامة ، فإن النسبة مختلفة كثيرا بينهما فى حالة العالم العربى وبالمقياس العالمى يعتبر العالم العربى من حيث حضارة المدن غير متخلف ، ولكنه يقف فى

---

(١) د. ماهر حسن فهمى : الحنين والغربة فى الشعر العربى الحديث ، ص ١٣٣ . وانظر ، غالى شكرى : شعرنا الحديث إلى أين ، ص ١٢ ، ١٣ .

الوسط المعتدل .(١)

وفى شتى العصور والأدبُ هو وسيلة التعبير عن الجانب المأساوى فى الحياة ، فهو خامة الفنون منذ البدء ، والشعر رفيق الإنسان فى جهده العضلى والوجدانى والتأملى، وقد ظل الشعر محتفظا بفاعلية كبيرة ، عبر رحلات الإنسان من الكهف إلى الحقل ، ومن الحقل إلى المدينة الصغيرة ، ومنها إلى المدن الكبرى ، فقد كان الشعر - وسيظل إلى الأبد - يتسع لأنين الروح فى عنفها وحنينها الآسر الأخاذ ، كما سيظل فى حاجة إلى الجدل الحى ، يلتقى فيه الهواء الطلق بالأزقة ، والغيم بالأرصفة ، والطير السابح فى أجواز الفضاء بضجةّ الشاحنة ، وهى مسيرة يقوم الشعر خلالها بأداة التعبير عن الإنسان فى صلته بالواقع ، زمانا ومكانا ، بطريقة بالغة التأثير .(٢)

- وقبل اصطراع الشعر مع المدينة لنا أن نتساءل : هل كان موضوع المدينة معاصرا كل المعاصرة ، أو أن له جذورا تضرب فى العمق التاريخى ؟ وإذا كان معاصرا ، فهل نشأ غربيّا أو شرقيا ؟ وإذا كان غربى النشأة ، فهل كان الشاعر العربى مقلدا أو أصيلا ؟ أسئلة كان لابد للبحث أن يطرحها ، ويحاول الإجابة عنها قبل الدخول فى صميم الموضوع .

وفى محاولة الإجابة تجدر الإشارة إلى أن التراث الإنسانى قد لمس من قريب أو بعيد معنى المدينة والحضارة ، بما يرمزان إليه من تغيرات ترغم النازح على التخلى عن شكله القديم ، وأن يلبس للبيئة الجديدة لبوسها ، وفى التراث العربى شواهد على الفزع من الشكل الحضارى ، والندوبِ التى خلفتها روحُ الحضارة الجديدة ، فهذه ميسون بنت بحدل (... - نحو ٨٠هـ = ... - نحو ٧٠٠م) وكانت شاعرة بدوية ، تزوجها معاوية بن أبى سفيان ونقلها إلى حاضرة الشام ، فثقلت عليها الغربة ، وأكثرت من الحنين والوجد إلى حالتها الأولى ، وضاقت نفسها أكثر لما تسرّى عليها معاوية ، فقالت هذه الأبيات :

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه ... أحبُّ إلىّ من قصر منيف
وبكر يتبع الأظعان سقبا ... أحب إلى من بغل زفوف
وكلب ينبح الطراق عنى ... أحب إلى من قط ألوف
ولبس عباءة وتقر عينى ... أحب إلى من لبس الشفوف
وأكل كسيرة فى كسر بيتى ... أحب إلى من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج ... أحب إلى من نقر الدفوف
وخرق من بنى عمى نحيف ... أحب إلى من علج عليف
خشونة عيشتى فى البدو أشهى ... إلى نفسى من العيش الطريف
فما أبغى سوى وطنى بديلا ... فحسبى ذاك من وطن شريف

---

(١) انظر ،د. جمال حمدان : المدينة العربية ، ص ١ ، ٧ ، ١٧ ، ٢٥ .

(٢) انظر ، د. على جعفر العلاق : المدينة فى الشعر ، الأقلام ، ص ٤٥ ، وانظر أيضا : غالى شكرى : شعرنا الحديث إلى أين ، ص ١٢ ، ١٣ .

فلما سمعها معاوية قال لها : مارضيت يا ابنة بحدل حتى جعلتنى علجا عليفا ، فالحقى بأهلك ، وطلقها ، قائلا لها : كنتِ فبنتِ . فقالت : والله ماسُرِرنا إذ كنّا ، ولا أسفنا إذ بِنّا .(١)

وهذا أبو نصر ، بشر بن الحارث ، المعروف بالحافى (١٥٠ - ٢٢٧هـ = ٧٦٧ - ٨٤١م) نزل إلى السوق ، سوق بغداد ، فهاله مارأى ، فخلع نعليه ، ووضعهما تحت إبطه ، وجرى فى اتجاه الصحراء ، وظل يجرى ، فلم يدركه أحد ، ومن يومها لم يُعلم عنه شىء .(٢)

ترى لماذا رفضت ميسون البدوية طِيبَ العيش فى الحاضرة ، وبين قصور الخلافة ؟ ولماذا هرب الصوفى الصالح عالم الحديث من سوق بغداد ؟

لاشك أن نزعة كل منهما فى الصراع تختلف فى باطنها عن الأخرى ، فالأمر مع الشاعرة البدوية نابع من المقارنة بين حياتين ، إحداهما سهلة بسيطة فى البادية ، تعبر عنها فى الأشطر الأولى من أبياتها ، والأخرى حياة أكثر عمقا وتركيبا فى حياة المدينة الشامية ، وعبرت عنها فى أعجاز الأبيات ، ووضعُ الأبيات بهذا الشكل ضرب من الوعى بحركة النفس واهتزازاتها المتضاربة فى صراع جلىّ بين مادرجت عليه من جهة ، وما آلت إليه من جهة أخرى ، وهى فى هذا أقرب إلى الروح الرومانسى فى موقف الشاعر الحديث من المدينة المعاصرة . ولكن موقف الصوفى الصالح موقف فكرى يتعلق بالجانب الخلقى الذى تغير فى الإنسان تبعا لتغيرات البيئة فى المدينة ، لقد أحسّ الرجل بالصراع الرهيب بين بنى الإنسان ، وأحس أن هذا الصراع يقضى - فيما يقضى - على القيم الإنسانية التى عاش الرجل بها ومن أجلها ، وأحس بالغربة ، وبأنه لامكان له بين هذه الوحوش الإنسانية ، فقرر الهرب حيث لا أحد .

ترى لوعاش كل من الصوفى والبدوية فى أيامنا هذه ماذا كان يفعلان ؟ إن البون شاسع بين العصرين الأموى والعباسى من جهة وعصرنا من جهة أخرى ، وهو أكثر اتساعا بين القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت وسائر المدن المعاصرة من جانب ، ودمشق معاوية وبغداد الرشيد والمأمون من جانب آخر .

وبخطوة أبعد كثيرا مما سبق ، نجد " ألفريد دى ڤينى "

قد استنكر " القطار " هذا الذى يرمز للعجلة ، والعجلة - كما يقال - من الشيطان ، وهو فى هذا الاستنكار يعلن عن تذمره من اختلال العلاقة بين الإنسان والزمن ، فالاختراع الجديد لايسمح بالتأمل الذى هو السمة المميزة للإنسان فكيف به لو عاش حتى أدرك عصر الطائرات،

---

(١) انظر القصة كاملة فى ، البغدادى : خزانة الأدب ، المطبعة الميرية ، بولاق - مصر ، ط الأولى ، ٥٩٣/٣ ، ٥٩٤ .

(٢) انظر ، خيرالدين الزركلى : الأعلام ، ٥٤/٢ ، وما أشار إليه من مصادر .

والصواريخ والمركبات الفضائية ؟ - كما يعلن عن تطور حضارى سريع ، ينقل الإنسان - دون وعى - إلى عوالم جديدة ، يحس فيها بالاغتراب ، وفى كلتا الحالين تعبير عن صدمة حضارية أحسها وهو يراقب التطور الآلى الجديد . (١)

ومع ذلك يؤكد البحث أن المدينة - كموضوع - فكرة شديدة المعاصرة ، ترتبط بالإنجازات العلمية فى القرن العشرين ، والإشارات السابقة لاتعدو أن تكون مواقف متناثرة لم تخلق من المدينة موضوعا على الشكل الذى سنراه فى ثنايا هذا البحث ، حيث ينطلق الشعر الحديث من مفهوم حضارى ، فى تصور جديد للكون والإنسان والمجتمع ، وهو تصور نابع أساسا من الثورة العالمية فى مستوياتها الاجتماعية والفكرية والتكنولوجية ، وذلك ينقلنا بطبيعة الحال إلى الجزئية الثانية من التساؤل عن نشأة موضوع " المدينة " غربى هو أم شرقى ؟

- والأدق فى التساؤل يجعلنا نعيد صياغته على نحو آخر ، إذ ليس هناك من يمارى فى أن موضوع المدينة نشأ غربيا ، ولذلك فإن البحث يجب أن يناقش أصالة " المدينة " موضوعًا فى الشعر العربى المعاصر ، يعنى هل كان شعراؤنا يقلدون فى هذا الموضوع شعراء غربيين تناولوه فيما تناولوا ، وتأثره شعراؤنا فيما تأثروا ؟

ولم يتفق دارسونا على رأى فى هذه الجزئية ، فبعضهم يفرق بين المدينة الغربية والأخرى العربية ، وأن ثمة فرقا بين الشعر العربى والشعر الغربى ، انطلاقا من أن الشعر الذى هجا المدينة عالميا راجعٌ إلى إحساس الشاعر بأن المدينة قد انتزعت من الإنسان إنسانيته ، نظرا للتضخم السريع ، وثورة الصناعة . واحتياجات المعامل والمصانع إلى بشر يتحركون ويعملون ، وليس إلى بشر يشعرون ويحسون ، وهذه سمة لاتبرز فى الميدان العربى ، فالمدن العربية تختلف عن مثيلاتها الغربية سعةً وضخامة وعلاقات ، والمدينة الغربية منذ " بودلير " هدف لنظرة اجتماعية إنسانية ، حيث تلتهم سعادة الإنسان ، وتدفن براءته ، ولابديل سوى مزيد من التشوهات التى تعمل على تفتيت الذات ، وقد استمر هذا التيار فى الإلحاح على الجانب الإنسانى ، فبودلير كان يرى فى باريس عاهرة ، وقد رسم " أودين "(٢) صورة ليوم يعيشه الإنسان الذى يحيا فى هذا القرن ، فهو يذهب صباحا إلى العمل ، ثم فرصة للغداء ، فالعمل من جديد ، ثم العودة إلى البيت ، فى حياة رتيبة مملة جعلته يتساءل إن كانت هذه الحياة المملة هى ماينتظرنا بعد الموت ، ومثل هذه الحياة يمكن أن ترفد الإنسان الشاعر بكثير من الأشياء الفنية ، على حد قول بودلير :

---

(١) انظر ، د. إحسان عباس : اتجاهات الشعر العربى المعاصر ، ص ١١١ .

(٢) انظر د. عبد الغفار مكاوى :

من كل شيء أمسك جوهره

قدّم لى نفايات ، وسوف أحول ذلك إلى ذهب

وهى مواقف سجلها الشعر الأوربى فى وجه تشوهات حضارية عالية المستوى ، أما الشعر العربى فإنه يقف فى وجه سحق أبسط الحقوق الإنسانية البديهية ، ولاشك أن الفرق كبير بين الموقفين ، وإن كانا غير متنافيين .

كما أن هناك فرقا كبيرا من حيث المواجهة " إن الشعر الأوربى يواجه مسألة من نوع خاص به ، وهى : هل الخطر فى الهجوم الحضارى ، أم أن الشعر نفسه لاينسجم والعصر الحضارى ؟ وهل كل تقدم صناعى يجعل الشعر يتراجع عن مكانته ؟ هل يأتى يوم ينتهى فيه الشعر الذى لاتحتاجه الحضارة الحديثة ، أم أن الاحتياج إليه يغدو ضرورة قاهرة ؟ "(١)

فلم يكن الشاعر العربى فى عدائه للمدينة يماثل ت . س . إليوت : " صحيح أن بعض الشعراء العرب قد كتب قصائد هجاء للمدينة ، ووقف موقف الريبة أوعدم التجاوب معها ، غير أن أيّاً من تلك القصائد لم تكن لتندرج مع نظيراتها ، لتشكل فى إنتاج شاعرٍ ما إطارا حضاريا لرؤيا مضادة للمدينة . إن موقف العداء للمدينة العربية لم يكن أصيلا تماما ، لأنه يفتقر إلى مبرراته الفلسفية والفكرية أولا ، ولا يستند ثانيا إلى أساس من واقع المدينة العربية ومستوى تحضرها ، قياسا للمدن الحديثة فى العالم "(٢).

وخلاصة هذا الرأى أن المدينة فى الشعر الغربى على اختلاف مع المدينة فى الشعر العربى ، وإن كانا متقاربين فى النظرة عند بداية شعرنا المعاصر ، " بل قل كان شعرنا قد حذا حذو الشعر الأوربى ، فى بداية نشأته ، وذهب فى تقليده إلى حد بعيد ، فقد أنشأ مدنا ضخمة ، فى حين لاتتعدى المدينة العربية مايمكن أن يسمى بلدة "(٣).

وفى المقابل لنفى الأصالة عن موضوع المدينة لدى الشعراء العرب ، وجدنا من ينفى التقليد عنهم فى هذا الموضوع ، فإذا كان الشاعر الغربى وهو يعبر عن تضايقه من الحضارة الحديثة ، ومن المدينة كرمز لتلك الحضارة لأسباب عديدة ، مما لايحتاج إلى توضيح أو مناقشة ، فإن اعتبار الشاعر العربى مقلدا أمر محوط بالشك الكثير ، والمسألة لاتعدو أن تكون نسبية ، فالمدن العربية - وإن اختلف حظها من الضخامة - تختلف عن الريف فى طرز الحياة اختلافا غير قليل ، وقد تصادف وجود عدد من الشعراء المعاصرين نشأوا فى الريف ، ونزحوا إلى المدن ، والصدام بينهم وبين المدينة لايعنى أنهم يمقتون الحضارة ووسائلها ،

---

(١) حنا عبود : النحل البرى والعسل المر ، دراسة فى الشعر السورى ، ص١٥٦ . وانظر قبله ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) د. على جعفر العلاق : المدينة فى الشعر ، مجلة " الأقلام " البغدادية ، السابق ، ص ٤٧ .

(٣) حنا عبود : النحل البرى والعسل المر ، السابق ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

وإنما هو تعبير عن عدم الألفة للبيئة الجديدة لأسباب عديدة . (١)

وإذا كان الشعر نابعا من مفهوم حضارى فى تصور جديد للكون والإنسان والمجتمع ، وهو تصور نابع من الثورة العالمية ، فإن الثورة تراث عالمى - وإن قادها الإنسان الغربى ، وشعراؤنا يشاركون فى هذه الثورة مشاركة فعالة ، لانقلا ، ولاتقليدا ، ولااقتباسا ولذلك كان لشعرهم موقف من الكون ، ووضع الإنسان فى هذا الوجود ، عن طريق الرؤيا التى تعيد صياغة العالم ، وأصبحت وظيفة الشعر هى الكشف عن عالم يظل فى حاجة دائما وأبدا إلى الكشف واكتشافٍ مالا يُعرف يَفترِضُ أشكالا جديدة كما يقول رامبو ، ومن ثم لابد أن يكون لهم موقف من المدينة كموضوع مستحدث ، ترك أبعاده فى أحاسيس وأفكار الشاعر العربى ، فشاعرنا لايعيش فى أشكال من الحياة خارج الحياة . (٢)

والبحث بدوره يميل إلى الرأى الثانى ، فليس من الإنصاف أن نجرد شعراءنا من أصالتهم الشعرية ، إذ لايعنى سبقُ الشاعرِ الغربى إلى موضوع ما - كالمدينة مثلا - أنه هو الأصل وغيره لاشىء ، فربما جاء بعده من الشعراء من برّز فى نفس الموضوع ، ولو أننا سلمنا بأصالة السبق فقط لأسقطنا من حساب التراث الإنسانى الحديثِ معظمَه ، فأكثره قد طرق موضوعات مطروقة قبله ، ولكنه أعادها من جديد ، وعليها طابع العصر ، بما يحمل فى داخله من تغيرات فلسفية واجتماعية وسياسية ، ولَمَا كان هناك بالتالى مجال يتحرك فيه علم الأدب المقارن ، ومانحن فيه هو لحمة هذا الأدب وسداه . من الذى يستطيع أن ينفى الأصالة عن شعرائنا لمجرد أنهم تناولوا موضوعا جديدا سبقهم إليه الشاعر الأوربى ؟ إن انفتاح الشاعر العربى على الآداب العالمية من أهم عناصر التحول الكبير فى نهضتنا الأدبية - إن لم يكن أهمها - ، وهو نفس الشىء الذى وسم أدبنا بميسم الجدة والأصالة ، ومن هذا الباب المفتوح على كنوز التجربة الإنسانية اكتشف العربىُ نفسه وموقعه من الحياة والكون ، فى محاولة للنهوض من كبواته السابقة ، واللحاق بركب الحياة المتطور ، إن من يغلق الباب يعيد إلى الأذهان مقولة " السرقات الأدبية " التى عانى منها الأدب العربى كثيرا فى غفلة عن الفهم الصحيح للتأثير والتأثر .

ثم من قال إن المدينة العربية ليست كمثيلاتها الأوربية ؟ إذا كانت الغيرية مبتناة على الضخامة فإن بعض المدن العربية تقف على قدم المساواة مع كبريات المدن الأوربية ، " وليست القاهرة أكبر مدن العرب أو أفريقيا فحسب ، ولكن قلّ منا من يدرك أنها أضخم مدينة فى نطاق كامل يشمل أيضا أوربا جنوب الألب والدانوب ، وآسيا غرب السند والهملايا ، وهى تأتى من حيث الترتيب الخامسة عشر بين كبريات مدن العالم . كذلك أصبحت الإسكندرية الآن كبرى موانىء البحر المتوسط ، بعد أن كانت تقليديا على قدم المساواة مع

---

(١) انظر ، د. إحسان عباس : اتجاهات الشعر العربى المعاصر ، ص ١١٢ .

(٢) انظر ، غالى شكرى : شعرنا الحديث إلى أين ؟ ص ١١٤ .

مارسيليا "(١). وماكنا لنذكر الضخامة مقياسا ، لولا أنها ذكرت ، لأن الضخامة فى التعريف الإحصائى للمدن ، وهو تعريف يصنف المحلات البشرية ويحدد نسب سكان المدن إلى مجموع سكان العالم ، اعتمادا على الحجم والكثافة ، وليس الحجم فى ذاته كافيا ، ولاتبدو الكثافة أساسا أفضل ، ومن الواضح " أن المدينة تتحدى التعريف الجامع المانع والمعادلة الموجزة وأن من السهل أن نقول ماليست المدينة أكثر من أن نقول ماهى ، وأن المدينة المطلقة المثالية هى افتراض علمى ، فليست هناك مدينة مطلقة ، أو قرية مطلقة "(٢)ولكن من خلال التعريفات التى قدمها العلماء من تعريف إحصائى ، أو إدارى ، أوتاريخى ، أو لاندسكيبى، أو وظيفى ، يمكن تطبيقها على المدينة العربية ، وإن ظل هناك خلف حضارى بين المدينة العربية والأوربية ، فهذا الخلف لايحجب الموقف الشعرى الذى يحسه الشاعر العربى تجاه مدينته ، وهو ينبع أساسا من أسلوب الحياة فى المدينة ، والذى هو يختلف عنه فى القرية ، ولايستطيع أحد أن يدعى توحد الأسلوبين ، فالموقف الشعرى كائن ، والجميع يبحث عن نفسه ، وعن موضوعات جديدة ، ويكتشف مناخات شعرية ، " وهكذا تتبلور مع الأيام موضوعات جديدة للشعر ، تنكشف للشاعر نتيجة لانهماكه العميق فى روح الحضارة ، كما هو ماثل فى إطار العصر ، ومحاولته تفهم أبعاد هذا الوجه الحضارى وقيمه ومثله ، ثم نتيجة لأصالة التجربة وبكارة الرؤية الشعرية على السواء "(٣).

- ولكن .. لماذا موضوع المدينة فى الشعر العربى المعاصر ؟

ذلك أنه مستحدث من جهة ، ومن جهة أخرى قد فرض نفسه على الشعراء بشكل يلفت النظر، بحيث يتعذر علينا البحث عن شاعر معاصر لم يطرقه ، بل إن بعض شعرائنا قد سيطر عليه موضوع المدينة ، فتسلل إلى معظم قصائده على مدار تجربته الشعرية ، ولذلك نراه ينتقل مع الشعراء فى تطورهم من الرومانسية إلى الواقعية الاشتراكية ، مرورا بما بين الاتجاهين من مذاهب ، آخذا أبعادا مختلفة من حالة اغتراب ، إلى توظيف اجتماعى وسياسى ، إلى أنماط رمزية متعددة ، على ماسيبين تفصيله فى خطة البحث .

ثم إن لغة شعرائنا اختلفت واتفقت فى الأداء ، ومع ذلك لم يحظ هذا الموضوع من الدراسات الأكاديمية بما يستحقه ، فلم يكتب فيه إلا عدة بحوث أو مقالات فى المجلات الأدبية ، أو بعض فصول فى كتب معدودة ، وليس هناك غير دراسة واحدة - على ما أعلم - ، وحتى هذه لم يتيسر لى الحصول عليها ، حتى بعد الانتهاء من هذه الدراسة (٤).

---

(١) د. جمال حمدان : المدينة العربية ، ص ٣٢ .

(٢) د. جمال حمدان : جغرافية المدن ، ص ١٤ ، وانظر الصفحات قبلها للوقوف على تحديد التعريفات العلمية للمدينة .

(٣) د. عزالدين إسماعيل : الشعر العربى المعاصر ، ص

(٤) هى دراسة قدمها د. مناف منصور ، بعنوان : الإنسان وعالم المدينة فى الشعر العربى الحديث ، مركز التوثيق والبحوث ، لبنان ،

- وإذا كان الموضوع قد فرض نفسه على شعرائنا بهذا الشكل ، فمن العسير إذن أن يسيطر عليه بحث واحد ، ذلك أن الكم هائل فى القطر العربى الواحد ، فما بالنا بأقطار متعددة بحجم الدول العربية ؟ فلا مناص من الاختيار إذن ، ولكن كيف ؟ وعلى أى أساس ؟

بحكم المعروض فى الساحة الأدبية ، وقع الاختيار على عدد من الشعراء ، يمثلون الأقطار العربية - ماعدا دول المغرب العربى ، حيث الاتصال الثقافى محدود ، لاسيما فى الشعر - مراعًى فى هذا الاختيار أن يوضح المجالين : الزمانى والمكانى ، بحيث يكون لدينا مجموعة من الشعراء الرواد فى حركة الشعر الجديد ، الذى أطلق عليه منذ البداية " الشعر الحر " ، مشفوعة بمجموعة أخرى من الجيل اللاحق للرواد ، فالامتداد الزمنى يزيد عن الأربعين عاما ، إذا كانت أقدم القصائد التى يتعرض لها البحث ، وهى " البغىّ " لنزار قبانى فى ديوانه الأول " قالت لى السمراء " الذى صدر عام ١٩٤٤م .

ويظهر البعد المكانى من خلال التعريف بشعراء البحث ، وهم :
من العراق ثلاثة ، بدر شاكر السياب ، الذى ولد فى قرية " جيكور " من محافظة البصرة سنة ١٩٢٦م ، وتوفى بالكويت فى ١٩٦٤/١٢/٢٤م ، والشاعر عبدالوهاب البياتى ، المولود فى نفس العام الذى ولد فيه السياب ١٩٢٦م بالعاصمة بغداد ، ثم سعدى يوسف فى محافظة البصرة عام ١٩٣٤م ، وهو امتداد لسابقيه الرائدين .
ومن مصر شعراء أربعة ، وهم على التوالى : صلاح عبدالصبور ، ولد فى الزقازيق فى مايو ١٩٣١م ، وتوفى فى أغسطس ، ١٩٨١/٨/١٣م ، فأحمد عبدالمعطى حجازى المولود فى قرية كبيرة هى قرية " تلا " من الريف المصرى ، عام ١٩٣٥م ، وعبدالصبور وحجازى من رواد حركة الشعر الجديد فى مصر والعالم العربى ، كالسياب والبياتى فى العراق .. يليهما فى جيل لاحق - والجيل اللاحق هو اعتبار فنى - الشاعران : محمد إبراهيم أبوسنة
وأمل دنقل من قرية " القلعة " محافظة " قنا " ولد عام ١٩٤٠م ، وتوفى فى مايو ، ١٩٨٣/٥/٢١م .

وكان نصيب البحث من الشام شاعران رائدان : نزار قبانى ، المولود فى دمشق فى ٢١ آذار (مارس) سنة ١٩٢٣م ، والآخر على أحمد سعيد ، الملقب بـ " آدونيس " ، والمولود بقرية " قصابين " فى جبال العلويين بسوريا ، والحاصل على الجنسية اللبنانية .

ومع هؤلاء شاعر من السودان ، وهو : محمد مفتاح الفيتورى ، المولود لأب سودانى من أعالى بحر الغزال ، وأم مصرية ، فى عام ١٩٣٠م ، وهو أحد الرواد لحركة الشعر الجديد ..
وشاعر من اليمن هو : عبدالعزيز المقالح
ويعتبره البحث من الجيل اللاحق للرواد .

هؤلاء أحد عشر شاعرا يعتبرهم البحث أساسيين ، وواضح من المثبت المتقدم أنهم

يمثلون قطبى الزمان والمكان المشار إليهما ، ولايعنى هذا أننا لن نتطرق إلى غيرهم ، فقد نضطر إلى الاستعانة بغيرهم عند الحاجة إلى ذلك ، كأن تكون الفكرة فى حاجة إلى تغطية كافية ، كما حدث فى الفصل الثانى من الباب الثالث " يوتوبيا صناعية " .

- وقد سلك البحث منهجا تكامليا ، يفيد من جميع الاتجاهات ، ذلك أنه - فى نظرى - أصلح المناهج هنا ، نظرا لتعدد الشعراء ، وتعدد بيئاتهم ، واختلاف الزمن عليهم ، وكثرة المنابع التى اغترفوا منها ، فما يصلح لأحدهم قد لايتفق مع غيره .. كما يجب التنوية إلى أن بعض المناهج قد تفرض نفسها على بعض الأبواب أو الفصول ، كما سنراه مثلا فى البعدين : الاجتماعى والسياسى للمدينة ، فالواقعية هى أصلح المناهج لدراسة هذين الفصلين بصفة أساسية ، دون أن تحجب المناهج الأخرى أن تطل برأسها على بعض النصوص ، جنبا إلى جنب مع المنهج الأساسى .

- واقتضت خطة البحث أن يكون من ثلاثة أبواب ، مرتبة حسب التطور والنضج الفنى عند الشعراء ، فالباب الأول بعنوان " صدمة المدينة " ، وهذا منطقى ، لأنها بداية العلاقة بين الشعراء والمدينة ، لاسيما الوافدين عليها من الريف ، والذين هم فى مرحلة الشباب ومن الطبيعى أن يحس الشاعر " بالغربة والضياع " فى المدينة . فيأخذ الفصل الأول هذا العنوان ، وغربة الشاعر فى المدينة تؤدى به إلى نوع من الارتداد ، فيسترجع القرية وهو فى خضم المدينة ، مما يولد فى نفس الشاعر " ثنائية : القرية - المدينة " ، وهذا هو مايعالجه الفصل الثانى من الباب الأول ، ويكون الطابع المسيطر على هذا الباب هو الروح الرومانسى .

ومن الطبيعى أن يتغير موقف الشاعر من المدينة ، فلا يبقى على نفوره منها ، بل يحاول أن يتكيف مع أوضاع المدينة ، فتبدأ مرحلة جديدة ، يعالجها الباب الثانى ، تحت عنوان : " رؤية المدينة " من ثلاثة فصول ، الأول : " الوعى المحدث " ويعالج حالة التكيف فى جدلية مع المدينة ، وشكلها الحضارى ، ثم يناقش " البعد الاجتماعى " ، وبعدَه " البعد السياسى " للمدينة ، فى فصلين متعاقبين بهذا الترتيب ، ويكون الشاعر فى هذا الباب قد تقدم خطوة أبعد عن الرومانسية ، وأفاد من المذاهب الأدبية السائدة بين الآداب العالمية ويغلب عليه بالدرجة الأولى منهج الواقعية ، لأنها الأقرب إلى الشكل الذى تمر به الأمة العربية فى نضالها على الصعيدين الاجتماعى والسياسى .

ونتيجة لمناقشة الأوضاع السائدة فى المجتمع العربى ، وحالات الانتكاس ، ونفور الشاعر من الشكل الحضارى المتعثر ، يرسم مدنا نموذجية يعانقها ، كبدائل للمدن الواقعية وهى مدن يحصرها البحث فى الباب الثالث تحت عنوان " الأنماط الرمزية للمدينة " ، موزعا

على ثلاثة فصول ، هى على الترتيب ، الفصل الأول " مدينة المستقبل " ، ويناقش يوتوبيا إنسانية ، ثم يوتوبيا صناعية ، وهى مدينة قريبة من المدن الفاضلة لدى الفلاسفة القدامى ، وإن كانت غيرها ، لأنها بديل للمدن العربية ذات الخلف الحضارى ، والفصل الثانى بعنوان : " مدينة الحلم " ويرصدها البحث من أحلام الشاعر على المستوى الفردى، أما على المستوى الجماعى فيتمثل النمط الرمزى للمدينة فى : " المدينة الأسطورية "، ويضلع بها الفصل الثالث والأخير ، وفى هذا الباب الأخير يتراوح التعبير مابين الرومانسية ، إلى النهج الرمزى .

وفى أول الأمر كان هناك باب رابع خاص بدراسة " الأدوات التعبيرية المصاحبة " وقد صرفت النظر عنه بعد توجيه من الأستاذ الدكتور المشرف ، وتوزيعه على عموم الرسالة ليكون إدام البحث كله ، ويكون مخرجا من الارتكاز على التحليل المضمونى للنماذج الشعرية التى يتناولها البحث بالدراسة ، وهو توجيه لقى فى نفسى هوى وارتياحا .

والله أسأل أن يوفق البحث والباحث ،،،

تمهيـــــد :

يرتكز هذا الباب بشكل رئيسى على محورين يشكلان صدمة المدينة ، المحور الأول يتشكل فى بداية وصول الشاعر للمدينة ، حيث يُبْدَهُ بنظمها وعلاقاتها ويفجع فى آماله وطموحاتـــه التى كان ينتظرها ، فيشعر بالإخفاق ، وكل ذلك يشكل حالة رومانسية تتسم بالغربة والضياع ، وسنبحثها فى الفصل الأول .

وبعد أن يأخذ الشاعر صدمته الأولى ، يأخذ فى البحث عن مهرب ، فتبرز القريـــــة المنبع ، والتى هى نقيض للمدينة كأحد الطول الجوهرية بالنسبة له حيث يُعيدها من جديد بأشكال مختلفة ، لعلها تهدئ من وقع المدينة عليه ، ولو فى الخيال ، وهذه الاستعـــادة للماضى الريفى تشكل المحور الثانى من هذا الباب فى صدمة المدينة ، وسنفرد لها فصـــلا بعنوان ، ثنائية : القرية / المدينة ، وواضح أن المحورين اللذين يدور عليهما الباب بحكمهما إطار عام هو الروح الرومانسى المسيطر .

الفصـــــل الأول

المدينة : غربـة وضيـــــــاع

على الرغم من أن الحرب العالمية الثانية قد فاجأت الحركة الشعرية فى بلادنـــا ، غير أن هذه الحركة لم تتأثر بالحرب فى حينها كما تأثرت بها أوربا ، ذلك أن أوربا قد اصطلت بنار الحرب ، بينما كان الشعر العربى يتقلب ويسبح فى الأحلام والأضواء والعطـــور بتأثير من الشاعرين : محمود حسن إسماعيل ، وعلى محمود طه ، فقد جذب أولهما اهتمـــام الشبان يوم ابتنى كوخه الريفى الجميل ، والناشئةُ تحب البساطة وتؤثر الحياة الريفية ، ولحسن الحظ كان كثير من شعراء المدينة ريفيين نازحين . وكان المهندس على محمود طـــه يتيه بزورقه فى عالم من الفتنة والسحر والحلم الوردى .

وقد استهوت قصائد الشاعرين ناشئة الشعر المعاصر ، فعزفوا على قيثارة الحلم فى جو رومانسى ، وليس هربا من الحرب الدائرة ، فالحرب لدى الأمة العربية لاتمثل قضيـــة إنسانية بين معتدٍ ومعتدًى عليه ، وإنما هى صراع بين طرفين من قوى الطغيان ، فلو اندحـــر أحدهما لم تتحطم تبعا له حضارة ، وتحل محلها همجية ، ولم تندحر مُثُلٌ عليا ليقوم علـــى أطلالها بناء لا أخلاقى ، بل إن العرب كانوا قد خبروا من طغيان الاستعمار ولا أخلاقيته ما لم يخبروه بعد من الفاشية والنازية (١) وربما كان هذا الإدراك لمغزى الصراع دافعا وراء بعض الأفكار التى كانت تُوالى سِرًّا دولَ المحور ، على أمل أن تتحرر بلادهم من ربقـــة الاستعمار .

وظهور أول أطيار الربيع لايعنى أن المرء قد استغنى عن حرارة الموقد ، وعليه فإن شعراءنا النازحين إلى المدينة إبان الحرب أو إثرها قد بدأوا بداية رومانسية ، كانت الروح الحالمة هى المسيطرة عليهم فى انتقالهم ، نزحوا رغبة فى العلم ، حيث الجامعات مركزة فى كبريات المدن ـ فالجامعات الإقليمية لم تنشأ إلا فيما بعد ـ ، أو نزحوا طلبا للرزق ، حيث مجال العمل أكثر انفتاحا ، فالريف محدود ، والمدينة تمتص النازحين إليها فى المصانع والشركات ، والحركةُ العمرانية المتسعة تحتاج إلى خدمات وأيدٍ عاملة . (٢)

وبهذا المعنى نزح بدر شاكر السياب من قريته " جيكور " فى مطلع العام الدراسى ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤م ، وانتقل أحمد عبدالمعطى حجازى من قريته " تلا " ، هذه القرية التى تصل إلى حدودها أضواء وضوضاء القاهرة ، كما نزح صلاح عبدالصبور من " الزقازيق " إلـــى القاهرة ، وأمام هؤلاء وأمثالهم آمال وطموحات فى عالم المدينة الجديد ، رغبة فى مزيد من تذوق الحياة ، والتعرف على أعماق التجربة البعيدة ، وفوق هذه العيون النازحة ، وحول قلوبها الشفافة الرقيقة نزعة رمانسية ، ستقف بينهم وبين رؤية المدينة علـــى